الثبات والتعجب عند المعتضد بالله

في مواجهة تمرد وصيف الخادم

الدكتــور
عبد الكريم عبده حتاملة
المشرف التربوي في مكتبة اربد
ومحاضر غير متفرغ في جامعة اليرموك

بسم الله الرحمن الرحيم

تولى المعتضد الخلافة سنة (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) وفي عهده انتعشت الخلافة وردت اليها هيبتها بعد انحطاطها بفضل قوة شخصيته وحزمه ، وقد اكتسب خبرة واسعة منذ ايام والده الموفق الذي شاركه في كثير من اعماله الادارية والعسكرية ، فقضى على جميع القلاقل الداخلية وتصدى للخارجين على الخلافة بحزم وقوة ولا سيما القرامطة الذين قوي امرهم في الكوفة والبحرين فأنزل بهم ضربات قوية رادعة ، وامتاز حكمه بالاستقرار التام ، وساعده ذلك ابتعاد الجيش عن التدخل في الشؤون السياسية وانصرافه فقط الى الاهتمام بمجابهة الاخطار التي تهدد الدولة ، كذلك استطاع بعد حكم لم يتجاوز عشر سنوات ان يجدد دولة بني العباس التي اصابها الوهن والضعف حتى قيل فيه بدأت الدولة العباسية بابي العباس (اي السفاح) وجددت بابي العباس (اي المعتضد) .

وتبدو أهمية المعتضد بين خلفاء بني العباس في امور كثيرة : فقد راى ان التعقيد في التقويم القمري يؤدي الى العمل على جباية الضرائب في شهر نيسان على مواسم تجمع في حزيران ، ولما كان مثل هذه الشذوذ لابد ان يعرقل جباية الضرائب فقد تم تصحيحه بسهولة بصورة كانت مرضية لجميع المعنيين(١) .

---

(١) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج١١ ، ص ٣٤٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٧٨ ، المقريزي ، الخطط ، ج١ ، ص ٧٥ .

ثم قام باجراء اخر تناول قضية اخرى معقدة هي قوانين الارث في الاسلام ، فقد الغى ديوان المواريث وتوريث ذوي الارمام ، فقد كان اصحاب المواريث واجهة لابتزاز اموال الناس بالباطل . ثم انه استرجع عددا كثيرا من الاقاليم التي فقدتها الدول العباسية أثناء ضعفها كارض الجزيرة واقليم الجبل والثغور الشامية وفارس وغيرها .

كذلك منع قادة الاتراك من التدخل في شؤون الدولة واوقفهم عند حدهم وذلك بفضل قوة شخصيته وحزمه مما ادى الى استقرار البلاد واصلاحها ، اضافة الى انه نقل العاصمة من سامراء الى بغداد والى بنائه دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد حيث أصبحت بعد ذلك نواة المدينة الحديثة ، ثم انه قام باصلاح الامور المالية فجعل مالية الدولة مبنية على اساس رصين وانقذها من افلاسها المزمن حتى عد من خلفاء بني العباس القلائل الذين اشتهروا بالشؤون المالية . ورغم هذه الاجراءات التي انتهجها المعتضد بالله لتمكين خلافته واضعاف سطوة اعدائه والطامعين في ملكه ، فقد ظهرت حركات في شكل تمرد ، حاولت ان تجد في طريقها من خلال اقتطاع اجزاء من الامبراطورية الاسلامية واقامة دويلات تتحقق من خلالها اطماع الفاتحين بها ، كان من ابرزها حركة وصيف الخادم المسلم الارمني فيما يرجح(٢) ، وقائد مجموعة كبيرة في جيش محمد بن ابي الساج(٣) وخادمه ، وقد تولى محمد بن ابي الساج

---

(٢) محمد شعبان ، الدولة العباسية ، ص ١٥٢ (ط ، بيروت ١٩٨١) .

(٣) ولي محمد بن ابي الساج امرة الاحواز ، وحرب صاحب الزنج من قبل الخليفة المعتمد (سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) وقد رغب في ضم الشام الى ملك بني العباس عقب وفاة احمد بن طولون (٢٧٠ هـ/٨٨٣ م) ولكنه لم يوفق ، خالف اسحاق بن كنداج وحاربه وكانا متفقين على فتح الشام معا ثم خرج على الخليفة العباسي ، ودعا لخمارويه بن احمد بن طولون وهادنه ثم انتهى امره بالهرب من خمارويه، فاكرمه الموفق وخلع عليه بعد أن قيل=

اعمال اذربيجان وارمينية زمن الخليفة المعتضد ، وكان قد تغلب عليها واظهر الخلاف ، الا ان الخليفة المعتضد ولاه هذه المناطق خوفا من عصيانه(٤) ، وفي سنة (٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م) توفي محمد بن ابي الساج باذربيجان(٥) فاجتمع غلمانه وجماعة من اصحابه فأمروا عليهم ابنه ديوداد وانظموا الى بلاط الخليفة في حين أن أخاه يوسف خالفهم واعتزلهم(٦) • وبعد ذلك بقليل أوقع يوسف بابن اخيه (ديوداد) وكان معه جيش ابيه فهرب الجيش وبقي ديوداد في جماعة قليلة فعرض عليه يوسف المقام معه فأبى والتجأ الى بغداد(٧) • ان روح التمرد والعصيان وحب الاستقلال كانت الصفة الغالبة على محمد بن ابي الساج ، وقد تأثر بذلك خادمه وصيف الذي بدا عليه حب الانفصال والتمرد على الخلافة العباسية وذلك بسبب الترتيبات الجديدة بالنسبة للمنطقة وخلافه الشديد مع قائد مجموعة كبيرة في جيش ابن ابي الساج ويوصفه احد ابناء المنطقة ، وفعلا في سنة (٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م) هرب وصيف خادم محمد بن ابي الساج من برذعه(٨) وذهب الى ملطية مراغما لمحمد بن ابي الساج في اصحابه « وكتب الى المعتضد يسأله ان يوليه الثغور ليقوم بها »(٩) •

= توبته واخرجه معه لحرب الخارجين من اهل الجبل •
الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج١١ ، ص ٣٧١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٩٨ . الذهبي تاريخ الاسلام الكبير ، ورقة ١٥٣ مخطوطة . الكاتب ، المكافاة ، ص ١٤١ . خالد الجنابي ، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ، ص ١٠ ــ ١١ (اطروحة ماجستير) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج١١ ، ص ٢٦٨ .
(٥) نتيجة الوباء الكثير . الطبري ، ج١١ ، ص ٣٧١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٩٨ .
(٦) الذهبي ، العبر ، ج٢ ، ص ٨٠ .
(٧) خالد الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ١٠ .
(٨) في ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، برذعه ، ص ٩٤ .
(٩) الطبري ، تاريخ ، ج١١ ، ص ٣٦٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٩٤ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٢٠ .

ولكن المعتضد غضب كثيرا ورد عليه بعنف يأمره بالمجيء اليه ثم ارسل اليه رشيقا الحرمي(١٠) ، ولكن وصيف الخادم رفض التوجه الى المعتضد ، ومما زاد من حنق المعتضد عليه ان وصيف الخادم ارسل في ٢٠ رجب سنة (٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م) للمعتضد وفدا مكونا من ثلاثة اشخاص يسأله ان يوليه الثغور والدخول الى ارض الروم والتعلق بالدروب ثم يوجه اليه الخلع(١١) ، ولكن المعتضد استطاع ان يعرف نوايا وصيف الخادم من الوفود المرسل اليه. بعد ان ضربهم ضربا شديدا فذكروا له « انه فارقه على مواطأة بينه وبين صاحبه على انه متى صار الى الموضع الذي هو به لحق به صاحبه فصارا جميعا الى مضر متغلبا عليها وشاع ذلك في الناس وتحدثوا به »(١٢) .

وفي ١٦ من ذي القعدة سنة (٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م) أراد المعتضد ان يلقن وصيفا درسا قاسيا لا ينساه في حياته على فعلته هذه فتوجه الى الثغر الشامي ونزل كنيسة السوداء في طلبه فأقام بها ثلاثة ايام حتى تلاحق به الناس ، ثم اراد الرحيل في طريق المصيصه ولكنه اخبر ان الخادم يريد عين زربه ، فسأل اهل المعرفة بذلك الطريق ، وسألهم عن اقرب الطرق الى لقاء وصيف فأخذوه وساروا به نحوه ثم ارسل جيشا من عسكره بين يديه فوجدوا وصيفا فقاتلوه واخذوه اسيرا ، فأحضره عند المعتضد فسلمه الى مؤنس الخادم(١٣) ، فأمر

---

(١٠) وهو من كبار موظفيه اي صاحب البريد العام في جميع المناطق الواقعة في الشمال الغربي ، الطبري ، تاريخ ، ج١١ ، ص ٣٦٧ . المسعودي ، مروج ج٢ ، ص ٥٢٠ . محمد شعبان ، الدولة العباسية ، ص ١٥٢ .

(١١) الطبري ، تاريخ ، ج١١ ، ص ٣٦٨ .

(١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١٣) كان مؤنس في بداية حياته من الخدم الخصيان في دار الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ/٨٤٦ ــ ٨٦١ م) وبعد مقتل سيده انتقل الى خدمة الموفق واسهم معه في حرب الزنج ، وفي خلافة المعتصد (٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ــ ٩٠٢ م) تقلد منصب صاحب الشرطة وذهب مع المعتضد لمحاربة

المعتضد في اصحاب وصيف بالامان وامر العسكر برد مانهبوه منهم ففعلوا ذلك(١٤) • واخيرا رجع الى المصيصة واحضر رؤساء طرسوس فقبض عليهم(١٥) لانهم كاتبوا وصيفا • ثم قام المعتضد بعد ذلك بجولة رائعة متفقدا الثغور كلها وفي طرسوس اتخذ خطوة كانت في منتهى الغرابة وفي منتهى الاهمية ايضا اذ « امر باحراق مراكب طرسوس التي كانوا يغزون فيها وجميع الاتها وكان من جملتها نحو من خمسين مركبا قديمة قد انفق عليها من الاموال مالا يحصى ولا يمكن عمل مثلها واضر ذلك بالمسلمين وفت في اعضادهم وامر الروم ان يغزوا في البحر وكان احراقها باشارة دميانة غلام بازمار »(١٦)•

وكان دخول المعتضد الى بغداد في ٢١صفر سنة (٢٨٨ هـ / ٩٠١ م) ودخل جعفر بن المعتضد وهو المقتدر وبدر الكبير وسائر الجيش على الظهر وقد زينت الطرق وبين ايديهم وصيف الخادم على جمل فالج « لبسوا الدراريع من الحرير الاحمر والاصفر وعلى رؤوسهم البرانس »(١٧) ثم كافا واغدق العطايا للقواد الذين شاركوا المعتضد في حرب وصيف الخادم امثال خاقان المفلحي وغيره •

= وصيف الخادم . الطبري ، تاريخ ، ج١١ ، ص ٣٦٨ ، ابن الاثير ، الكامل ج ٦ ، ص ٩٤ •

(١٤) الطبري ، تاريخ ، ج١١ ، ص ٣٦٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ص ٩٤ •

(١٥) منهم ابو اسحق امام الجامع وابو عيسى عدي بن احمد بن عبدالباقي وغيرهم من المرينين امثال البغيل (وكان من رؤوساء الثغر) وابنه • المسعودي ، مروج الذهب ، ج٥ ، ص ٥٢١ •

(١٦) الافشين : هو محمد بن ابى الساج لقب بالافشين ومات باذربيجان سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م •

(١٧) الطبري ، تاريخ ، ج١ ، ص ٣٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج١ ، ص ٩٤•

وقد ذكر ابن المعتز حرب المعتضد واسره لوصيف الخادم سنة (٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م) في ارجوزته(١٨) :

واسأل ثغور الشام عن وصيف ... تخبر بفتح عجب ظريف
قال اريد الغزو وهو آبق وليس ... يخفى كاذب وصادق
وقال ولوني في مكان وجاهر ... الاسلام بالعصيان
وسار بل طار اليه عسكره ماكان ... الا بالعيان خبره
فعاين الموت الذي منه هرب ... ومن يفوت قدرا اذا اقترب ؟
فكم وكم من هارب ذليل وكم ... اسير خاضع مغلول
ونائب الى الامام يعدو وذله ... من قبله أشد
لما اتى لوصيف خاقان فعلمت ... كيف الرجال الخصيان

ثم قال :

ومات الافشـ(١٩) عليه حسرة ... وما بكت عين عليه قطرة

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٢١ .

(١٩) وهي طويلة تبلغ (٤٣٢) بيتا من الشعر وهي صورة مصغرة لنمط الملاحم كالالياذة والشاهنامة وسدت بعض النقص الذي يوجد في الشعر العربي وطبعت وحدها سنة (١٩١٣) وقد نشرها وشرحها وترجمها الى الالمانية لانغ الالماني ، هذه الارجوزة بجانب ميزتها الادبية وثيقة تاريخية هامة للاحداث في عهد المعتضد ويشرح ابن المعتز في هذه القصيدة الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفسادها قبل المعتضد واشتراكه مع والده في توطيد دعائم الخلافة العباسية والقضاء على الثائرين ثم يذكر تولية العرش وانقاذه الخلافة من الضعف الذي كان يضفي عليها واعماله الكبيرة وحروبه التي قام بها . لمزيد من التفصيلات انظر : ابن المعتز ، ديوان ، ص ٤٨١ (ط بيروت) ، خفاجي ، ابن المعتز ، ص ٣٦٥ ، احمد امين ، ظهر الاسلام ، ج١ ، ص ٢ (ط ١٩٤٥) ، تحسين حميد ، المعتضد بالله ، ص ٢٩٥ .

ويبدو ان المعتضد قد تعب كثيرا في القضاء على وصيف الخادم فقد ذكر المسعودي « ان وفاة المعتضد كان بسبب تحلل جسمه في مسيره في طلب وصيف الخادم »(٢٠) • وكان المعتضد يتعجب من شهامة وشجاعة وصيف الخادم وحزن كثيرا على موته لحسن حيله واقدام ثم قال : « ليس في طبع هذا الخادم ان يرأسه احد بل في طبعه ان يرؤس في نفسه »(٢١) •

يروى ان المعتضد ارسل اليه وهو بالسجن خادمه ليسأله عن اي شهوة ورغبة ؟ فأجاب نعم : باقة من الريحان اشمها وكتب من سير الملوك الغابرة انظر فيها ، فلما رجع الرسول الى المعتضد واخبره بما سأله امر له بما طلب وامر من تراعى نظرة في الكتب في اي فصل ينظر ؟ فاخبر انه يطيل النظر في سير الملوك وحروبها ومحنها دون سائر ماحمل الى حضرته من الدفاتر فتعجب المعتضد وقال : هو يهون على نفسه الموت(٢٢) •

وفي ذي الحجة قتل وصيف خادم ابن ابي الساج وصلبت جثته ببغداد وقيل انه مات ولم يقتل(٢٣) ، وقد ذكر المسعودي ان الخدم سألوا المعتضد ان يستروا عورته ، فأباح لهم ذلك ، فألبس ثيابا ، ولف عليه شداد جديد ، وخيط على مكان الثياب من سرته الى الركبتين ، وطلى بدنه بالصبر وغيره من الاطلية القابضة والماسكة لاجزاء جسمه ، فأقام مصلوبا على الجسر لايبلى الى سنة (٣٠٠ هـ / ٩١٣ م) في خلافة المقتدر بالله(٢٤) ، وفي هذه السنة شغب الجند والعامة ، فعمدت العامة اليه تماجنا ونزلوه من فوق الخشبة

(٢٠) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٢٥ .
(٢١) المصدر نفسه ، ص ٥٢١ .
(٢٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٢٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٩٩ .
(٢٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٢٢ .

وقالوا : قد وجب علينا حق الاستاذ ابي علي وصيف الخادم لطول مجاورته لنا وصبره علينا ، من يبلى على هذه الخشبة ، فلفوه في رداء بعضهم وحملوه على اكتافهم ، يرقصون ويغنون فيصيحون حوله : الاستاذ ، الاستاذ ، فلما ضجروا من ذلك طرحوه في رجله وذلك انهم شيعوه في الماء سباحة ، فغرق منهم في جريه خلق كثير(٢٥) .

(٢٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

المصادر والمراجع

● المصـــادر ●

- ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) : ابو الحسن علي بن ابي الكريم محمد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا عني بمراجعه اصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ .

- ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) : عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم العباسي ، ديوان ابن المعتز ، ط بيروت ، دار صادر (بلا) .

- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) : ابو عبدالله شمس الدين محمد بن الاحمد .

  - تاريخ الاسلام الكبير ، مجلد ٣ ، مخطوطه موجوده في مكتبة الاوقاف المركزية ، بغداد ، رقم ٨٢ .

- العبر في خبر من غبر ، ج ٢ ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ — ١٩٦١ .

- الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) : ابو جعفر محمد بن جرير .
تاريخ الامم والملوك (١٣ جزءا) ، الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية ، مكتبة خياط ، بيروت (بلا) .

- الكاتب (ت ٢١٣ هـ / ٨١٨ م) : ابو جعفر احمد بن يوسف .
المكافأة ، المطبعة الاميرية ، بولاق ١٩٤١ .

- المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي.
مروج الذهب ومعادن الجوهر ٩ اجزاء ، بيروت (١٣٨٥ هـ/١٩٦٦ م).

• المراجـــع •

ــ الجنابي ، خالد : تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ، بغداد ١٩٧١

ــ أمين ، احمد : ظهر الاســــلام ، جزءان ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الخامسة ، بيروت ١٣٨٨ هـ ٩٦٩ •

ــ تحسين ، حميد : المعتضد بالله ، رسالة ماجستير ، بغداد ، ١٩٧٠ •

ــ خفاجي ، محمد عبد المنعم : ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ •

ــ شعبان ، محمد عبد الحي محمد : الدولة العباسية ، بيروت ، ١٩٨١ •